المجاعة في بلاد الشام خلال الحرب العالمية الأولى

جاء في مقال نُشر بمجلة "الحرب العظمى" التي يملكها ويحررها "عمر أبو النصر" ويصدرها في بيروت، العدد ٤٨، الصفحة ٤، حول المجاعة في بلاد الشام أثناء الحرب العالمية الأولى عنوانه:

المجاعة في سورية ولبنان والبلاد السورية

كيف كان الناس يموتون جوعاً في الطرقات والشوارع

كيف كان الناس يأكلون بعضهم بعضاً من شدة الجوع

المجاعة الفظيعة: طغت المجاعة على سورية ولبنان والبلاد العربية أثناء الحرب[١]، وكان سببها انقطاع موارد الرزق انقطاعاً يكاد يكون تاماً في لبنان لضعف زراعته، واضطراره إلى الاعتماد على البلاد المجاورة في كل أسباب العيش، وزاد في طغيان المجاعة وتبسطها في لبنان حجز الحكومة العثمانية لسائر الحبوب التي تأتي إلى لبنان من أنحاء سوريا إلا أقلها، وتوزيع الدقيق توزيعاً ظالماً بحيث أن ما يصيب العائلة لم يكن يكفيها ولا يسعف جوعها، وحتى بلغ ثمن رطل الحنطة – والرطل أقل من ٤ كيلو [٢] – ١٦ غرشاً ذهباً[٣] في السنة الأولى من الحرب، وإلى عشرين غرشاً في السنة الثانية وإلى ٣٤ غرشاً في الثالثة، وفي السنة الرابعة بلغ الرطل ٦٠ غرشاً ذهباً، وعلى غرار هذه الأسعار كانت أسعار بقية الحاجيات، بحيث أن بعض الموظفين لم يكن يكفي راتبهم الشهري لشراء أربعة أرطال من الخبز[٤].

ولمّا قل المال في البلاد أخذ الناس يبيعون ما عندهم من الأثاث، فباع متوسطوا الحال كل أراضيهم، ثم منازلهم ثم مقتنيات المنزل وأثاث البيت، وذلك بأسعار دون أسعارها الحقيقية بخمسين بالمائة في أكثر الأحيان.

وكان الواحد يستقرض[٥] ليرة الورق التركي على أن يردها بعد سنة ليرة ذهباً أي خمسة أضعاف قيمتها، يضاف إليها الربا الفاحش أي ثلاثين أو خمسين أو مئة فتصبح المئة الواحدة ٧٠٠، وكثيراً ما كان الدائن لا يرضى بهذا الربح حتى

يؤمن دينه برهن الأرض بيعاً باتاً بنصف ثمنها، فإذا حان وقت الردّ ولم يكن للمديون ما يدفع به الدين ذهبت أرضه إلى يد الدائن فأخذ هذا مئته ألفاً أو أكثر، كل هذا ولا يجد المحتاج أحياناً من يدينه على هذه الصورة لعله ينجو هو وعائلته من الموت جوعاً، وقد أخذت النساء تبيع حلاها ثم أثوابها ثم كسوتها التي على أبدانها حتى لا تكاد تبقي على ما يستر عورتها، وكنت تلاقي في الأسواق أطفالاً وأحداثاً وبناتاً عراة لا يسترهم شيء يرتمون على وجوههم إلى الأرض للحر والبرد والمطر في الليل وفي النهار.

أمّا البيت فلم يبق فيه شيء مما له ثمن وأخرجت إلى سوق المزاد الأمتعة والأواني والكراسي والطنافس والحصر والفرش واللحف والطناجر والصحون فأخشاب النوافذ والأبواب ثم ما على السقف من قرميد وخشب.

وبما أن سوق الحجارة كانت كاسدة فلم يتمكّن السكان من بيعها وذهبوا متفرّقين يضربون في مشارق الأرض ومغاربها يلتمسون القوت فيلاقون الموت.

وقد نزح عدد كبير من اللبنانيين المساكين إلى المدن طلباً للأقوات، وذلك الرجل الذي كان سيداً في قومه أصبح اليوم وفي يده مكنسة يكنس بها شوارع المدينة لينال من البلدية قليلاً من الخبز يسدّ به رمقه، وانظر إلى هذا الفقير الذي يقف على الأبواب مستعطياً خجلاً أو يعترض المارة في الأسواق يسأل والحياء يخنقه رحمة وإسعافاً، إن هذا المسكين كان المثري صاحب السعة والجود والعزّة، ومثله ربّات الخدور وذوات الترف والنعم يخدمن في بيوت الناس بأحقر الخدم طلباً للعيش، واللواتي كن لا يخرجن من بيوتهن إلا بالحفاوة والإكرام يجلن في أسواق المدينة متســولات ويجلسن إلى زوايا الشــوارع ليبعن الخبز أو الترمس[٦] أو شيئاً من الفواكه أو الخضر ليكسبن ثمن رغيف، وبعضهن يجررن عجلة مشحونة من مدينة إلى أخرى بدلاً من الدواب التي أخذتها الحكومة فيُعطين شيئاً من الشعير لغدائهن.

ما كانوا يأكلون: ولعلك لا تعلم أي خبز كان يأكله المساكين فتقول: ربما كان خبز الشعير والذرة أو الترمس المرّ ?

فأجيبك: يا ليت.

فتقول: ربما خبز الكرسنّة[٧] وبزر المكانس[٨] مخلوطاً بشيء من الحنطة والشعير ؟

فأقول: ما ألذ هذا الخبز لمن حصل له في ذلك الوقت العسير.

وكان المار في شوارع دمشق وفي كثير من المدن السورية يرى مئات من الناس وقوفاً على أبواب الأفران من الفجر إلى الظهر يطالبون بنصيبهم من الخبز على حسب ما بأيديهم من وثائق الإعاشة وهناك الازدحام والشتم والضرب واللكم.

وبعد ما يعاني الواقف هناك كل هذه الإهانات يرجع بخفي حنين أو بربع حاجته من الخبز لطعام عائلته في ذلك اليوم، وليس في السوق خبز فيشتري المحتاج حاجته بل يضطر إلى الاغتذاء بما يتيسّر له إذا تيسّر له شيء، وهذا العذاب كان يتجدّد تقريباً كل يوم لعامة الناس الذين لم يتمكّنوا من مشترى مؤنتهم في الوقت اللازم.

أمّا اللبنانيون فكانوا أسوأ حالاً من جميع المحتاجين فإن عدداً وافراً منهم كانوا يلتهمون البلّوط[٩] والخُرْنُوب[١٠] من الجبال وأصول النباتات والأعشاب مما تأكله البهائم، ويُذكر أن امرأة من قرية "جون" على مقربة من صيدا، استمرّت أربعين يوماً وأربعين ليلة في حرش هناك تقتات من عشب الأرض، وكانوا يبتاعون بزر المكانس والقنّب[١١] فيطحنونه ويصنعون منه خبزاً، ولم يعد شيء يعاف الجياع أكله حتى لحم الجرذ والهررة والكلاب، وبعض اللبنانيين الفقــراء هبطوا إلى المدن الساحلية كبيروت وصيدا وطرابلس وجعلوا يقتاتون بقشور الليمون الحامض والبرتقال وبعضهم كانوا يبحثون في المزابل وكناسة البيوت لعلهم يجدون شيئاً من بقايا الطعام أو قشور الخضر أو الفواكه فيأكلون ما وجدوه حتى العظام وقشر الليمون وإذا قشر أحد برتقالة ليأكلها في السوق لحقه عشرة من الجيّاع يتسابقون إلى القشرة والبزر.

ورأى بعضهم واحداً من هؤلاء التعساء يأكل جلدة انكليس [?] مما تعاف أكله الكلاب وكثيرون أكلوا لحوم الجيف اسوة بالغربان والنسور.

ولقد سمعنا أن جائعاً يشكو إلى الله شدة جوعه ويقول: "يا ربّ أكلة عدس وأموت"، لأن ألوفاً من الناس لم يذوقوا شيئاً طُبخ على النار مدة سنتين. ولم يكن

أحد يجرأ أن يأكل علانية حتى تحيط به عشرات الجياع لا يستطيع دفعهم عن طعامه، والويل لمن حمل رغيفاً في يده فإنه لا يعلم أي يد تنشل الرغيف منه. ولم يعد أحد يؤمن أن يرسل عجينه إلى الفرن وحبوبه إلى الطاحون ما لم يحتط لذلك بكل ما لديه من الوسائل لمنع الجائعين عن طعامه عملاً بناموس تنازع البقاء.

أمّا النهب والسلب والخطف والتعدي على باعة الخبز في الأسواق فحدّث عنه ولا حرج، ولم يبق أحد يأمن على بيته وحانوته وزرعه وشجره فاضطر كل من له شيء أن يحرسه متسلّحاً الليل والنهار، وقلّ من نجا من سرقة رزقه حتى من قبل الخدم العائشين في بيته أو في حانوته. ثم تألفت عصابات اللصوص وجعلوا يهجمون علناً على ذوي الأموال فيغتالونهم في بيوتهم أو في الطريق أو يرسلون إليهم الأوامر بدفع مبلغ وافر من المال في محل معيّن وإلا فلا نجاة لهم من الموت.

أمّا الحكومة فكانت أعجز من أن تردّ هذه التعديات ولم تعد تعاقب أحداً في سرقة لعلمها أن الجوع علّة طبيعية للسرقة فضلاً عن أنها هي اللص الأكبر الذي **ابتزّ مال الرعية بلا رحمة.**

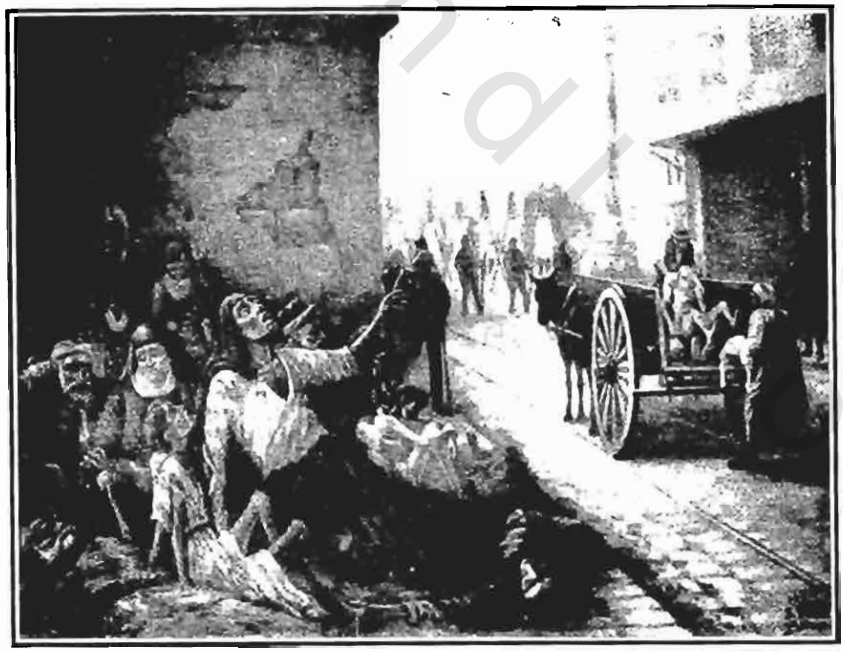

لوحة المجاعة في حرب السفربرلك للفنان الراحل سعيد تحسين (مقتنيات المتحف الوطني بدمشق)

الهوامش

(١) يقصد **الحرب العالمية الأولى** ١٩١٤-١٩١٨م التي تعرف عندنا باسم (السفربرلك).

(٢) **الرَّطْل**: يعادل ١٢ أوقية، أو ٢،٥ كيلوغرام أو ٢٥٠٠ غرام بالنظام العشري. والجدير بالذكر أن تحوّل النظام من الرطل إلى الكيلوغرام أيام الانتداب الفرنسي لقي معارضة شعبية شديدة في البداية، وقامت بعض المظاهرات الاحتجاجية، لأنه اعتبر مسّ بالتقاليد الوطنية.

(٣) **الغرش الذهبي**: تعبير كان يطلق في العهد العثماني على الليرة الذهبية.

(٤) **في حاشية المقال الأصلية**: كانت أسعار الحاجيات في السنة الأخيرة من الحرب في بيروت مثلاً كما يلي: البرغل ٣٠٠ غرش تركي ورق، والعدس والفول والحمص ١٣٠، والقلقاس البحري ٤٠ – وكان الرطل يباع قبل الحرب بغرش ونصف – وبلغ ثمن رطل اللحم ٢٤٠ غرشاً ورقاً، والزيت ١٨٠ والسمن ٥٠٠، أمّا الأرز والسكر والقهوة فقد أصبحت نادرة.

(٥) **يستقرض**: يقترض أو يستدين.

(٦) **الترمس** Lupine: جنس نباتات زراعية من الفصيلة القرنية والقبيلة الفراشيّة، فيه نوع يزرع لحبه الأصفر المفرطح المضلّع المحزّز، له نقرة في وسطه، وأنواع تزرع لزهرها، وهو مرّ المذاق، وقد يضاف دقيقه إلى طحين القمح لصنع الخبز.

(٧) **الكِرْسَنَّة** Ervil: نبات عشبي سنوي من الفصيلة القرنية، يزرع لحبّه، وهو يعطى علفاً للبقر.

(٨) **بزر المكانس**: ذكر الأسدي في موسوعة حلب المقارنة حول صناعة المكانس أو المقشّات فقال "تُصنع من نبات المكْنس يزر حبّاً في بساتين حلب الجنوبية ويُسقى من النهر، ومتى احمرّ حبّه يُقطف". أقول: لم أتوصّل إلى اسمه العلمي ولكنه هو الحبّ الذي يظهر أحياناً في المقشّات المكانس الخشنة المستعملة في بلاد الشام.

(٩) **البَلّوط** Oak Trees: من أهم أشجار الأحراج، كبير غليظ الساق متين الخشب، ثمرته بيضوية الشكل لها قمع يغطّي قاعدتها وقشرة يابسة قاسية تضمّ بزرة واحدة يؤخذ منها العفص.

(١٠) **الخُرْنُوب**: شجر مثمر من الفصيلة القرنية، ثماره قرون تؤكل وتُعلفها الماشية.

(١١) **القِنَّب** Common Hemp: نبات سنوي زراعي ليفي من الفصيلة القنبيّة، تكثر زراعته في غوطة دمشق، كان يستعمل وقوداً للأفران، ويسمّون حبّه في الشام "القُنْبُز" ويطعمونه للطيور.